

مقياس: أدب الهامش

السنة الثالثة ليسانس

الأفواج: 06-05-04

الأستاذة: حليمي فاطمة الزهراء

- مفهوم أدب الهامش او الأدب الهامشي:

ما الذي يعنيه مصطلح أدب الهامش؟ هل هو ذلك الأدب الذي يتحدث عن فئة مهمشة في المجتمع ؟ أم هو ذلك الأدب الذي يتناول قضايا يتم التعنيم عليها من طرف سلطة معينة دينية كانت أو سياسية أو أخلاقية أو حتى عرفية ؟ هل بإمكان الأدب تبديد الهامش عند تسليط الضوء على عوالمه؟ وهل يمكن للهامش في ظروف معينة أن يحتل ربما المركز إذا تغيرت تلك الظروف و تبدلت المعطيات؟ كل هذه الأسئلة وغيرها كثيرا, قد يطرحها دارس الأدب و غيره عن مصطلح الهامش و أدب الهامش

يجب الإقرار هنا بصعوبة تحديد مفهوم دقيق لما يسمى أدب الهامش الذي شاع في السنوات الأخيرة شيوعا واسعا, و صعوبة تحديد مفهوم جامع لمصطلح أدب الهامش تكمن في تعدد جوانب هذا الهامش, فهناك الهامش السياسي و الهامش الديني و الهامش الأخلاقي و الهامش الأيديولوجي و الهامش الثقافي.... و غيرها من الهوامش

مفهوم الهامش و أدب الهامش:

المفهوم اللغوي: جاء في القواميس القديمة كقاموس لسان العرب, إن الهامش لغة هو الكلام غير المجدي و يقال عن المرأة همش الحديث أي كثيرة الكلام ثرثرة, و القوم يهمشون يكتبون الكلام و الحركة

فإذا أضفنا كلمة "أدب" إلى الهامش يصبح بهذا المعنى, ذلك الكلام الزائد و أدب الهامش هو الذي يتضمن لغوا و بالتالي لا فائدة منه, و قد يضيف لغوي آخر و هو الفيروز ابادي في قاموس المحيط معنى آخر للهامش فيقول هو: حاشية الكتاب ليفصله عن المتن أو ليفرقه عن المتن الذي هو اصل مادة الكتاب أما ما يوجد على الحاشية فهو كلام زائد

هذا بالنسبة للمعنى اللغوي أما اصطلاحا فللهامش كما سبق الذكر جوانب متعددة اجتماعية, سياسية , ثقافية, دينية , لهذا لتعريف الهامش اصطلاحا يجب المرور على كل هذه الجوانب و تعرفه إحدى الباحثات انه -أي الهامش- هو الطرف الأقل و الأدنى و الأبعد و القصي و الدوني عن المركز, و هذا التداخل جعل مفهوم الهامش مفهوما فضفاضاً يتسع ليشمل كل أنواع المنبوذين و المقصيين من قبل جماعة ما أو مجتمع بأسره كالسود, و الفقراء و النساء و غيرهم كثير, لهذا نرى بعض المفاهيم تدل بصورة طبيعية على المهمش مثل مفهوم مصطلح الآخر, فالآخر هو غير الذات, سواء كانت تلك الذات فردية أو جماعية " . أما " فينسون باير" فيوضح لفظة الهامش بكونها لفظة جديدة و حديثة العهد, تجمع إجمالاً بين عدة مواقف حيث يقول " فالهامشية بين المنحرف و المتشرد من الناحية القانونية , و بين المجنون و المدمن من الناحية الصحية و بين الأمي و المهاجر من الناحية الثقافية و بين الفقير و العاقل من الناحية الاجتماعية و الاقتصادية , و لتدليل المفهوم نستعرض بعض مفاهيم الهامش و ظهوره في المجال السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي

المجال السياسي: العالم ينقسم إلى دول مركز و دول هامش و تحرص الدول المتقدمة على الحفاظ على بقائها في المركز و لن يتأتى لها ذلك إلا ببقاء الدول النامية في الهامش فالقوي لا

يعمل فقط على زيادة قوته, بل يعمل على إضعاف غيره و امتصاص موارده لزيادة إنتاجه حتى يظل دائما محتكر و يبقى الآخر الهامشي مستهلكا حتى لا يشكل خطرا على مركزه و الهامش في المجال السياسي قد يظهر من خلال ظهور بعض الأحزاب و التيارات السياسية المختلفة الرافضة لسياسة المركز (أي السلطة الحاكمة) و يظهر الهامش أيضا في صور جديدة من التعبير الجماهيري و لغة جديدة في وجه الاستبداد و سلطة المركز , لهذا أصبح الهامش يمثل ثورة على المركز , مثلما نرى دائما من ثورات عربية (الربيع العربي, الحراك الشعبي), فكل هذا بمثابة ثورة الهامش على المركز أي ما يسمى بالثورة المضادة

المجال الثقافي: حين تقوم جماعة بفرض سيادتها على جماعة أخرى , فإنها من خلال وسائل السلطة و أجهزة الإعلام تحاول فرض ثقافتها , ثقافة الغالب على الجماعة الأخرى , و إلغاء ثقافتها أي ثقافة المغلوب و ذلك بمحاولة تسييد معاييرها هي , و محاولة إنتاج تلك الجماعة داخل منظومة السلطة, و لكن لان الثقافة لا يمكن إلغاؤها , فان الحوار يتحول إلى الصراع الثقافي , حيث تستعمل الجماعة المسودة كل الوسائل من أجل المحافظة على ثقافتها و ثقافة الهامش هي كل ثقافة تمارس الخروج الخلاق و تبني بلاغة الحداثة و الحرية و الانعتاق و تسعى إلى خلخلة المركز و زحزحته لا لمجرد انه مركز , و إنما لتؤكد أن ثقافة الفرد الواحد و الذات الواحدة و الثقافة المطلقة تقف في وجه الدخول في العصر

المجال الاقتصادي: برز مصطلح الهامش في الجانب الاقتصادي مقابل المركز للدلالة على التقدم مقابل التخلف اعتمادا على فكرة الاقتصاد العالمي الذي يتكون من الدول الرأسمالية المتقدمة التي تمثل مركز الاقتصاد , و الدول النامية المتخلفة التي تمثل هامش هذا الاقتصاد فدول المركز تعمل على احتكار التكنولوجيا , في حين أن دول الأطراف تعمل على نقل خبراتها إلى البلاد المصنعة , فكان التحكم في التكنولوجيا المتقدمة و استخدامها كوسيلة ضغط على الدول النامية لإجبارها على اتخاذ بعض القرارات التي تخدم مصالحها , فالتبعية بكل أنواعها (استعمار- مال-صناعة و تكنولوجيا) هي التي تحدد الفروق بين المركزي و الهامشي اقتصاديا و تميز بين الدول المتخلفة و الدول المتقدمة

الهامش في الأدب:

كما لاحظنا في خضم حديثنا عن المجالات التي يتجلى فيها مصطلح الهامش أننا لا يمكن أن نتحدث عن الهامش بمعزل عن المركز لأنهما ثنائية ضدية لا يحضر احد طرفاها إلا بوجود الطرف الآخر في علاقة جدلية لا متناهية

لهذا نقول أن مصطلح المركز و الهامش في الأدب قد ظهر في السنوات الأخيرة, إلا أن فكرة المركز و الهامش في الأدب ليست وليدة هذه الفترة الأخيرة بل هي أزلية منذ بداية الوجود البشري , فعلى مستوى الشعر كان الشاعر في العصر الجاهلي يمثل مركز قبيلته , فكان يحظى بمكانة عالية, كيف لا و هو لسان حالها الناطق المعبر عن وجودها المدافع عن شرفها و عرضها, فكان ميلاد شاعر في قبيلة بمثابة فجر جديد للقبيلة تقام له الأعراس و الولائم لليال بل قل لأسابيع . فهو - أي شاعر- كما يقول" ابن رشيقي القيرواني ": حماية لأعراضهم و تخليد لمآثرهم و إشادة بذكرهم, و كانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ لهذا كان الشاعر مركز قبيلته

في المقابل ظهرت فئة الشعراء الصعاليك الذين اختاروا الخروج على نظم القبيلة و قيودها فكانوا في الهامش.....فشريحة الصعاليك تمردت على نظم القبيلة و كسرت قيودها و تبنت أنظمة شعرية مختلفة عن معاصريها شكلا و محتوى

أما الأدب الهامش فهو " كل أدب منبوذ متمرد و متجاوز لسلطة المركز أي كل أدب يتجاوز حدود المؤلف و يتمرد على التقاليد السائدة " يقول الناقد -حسن بحراوي- الأدب الهامشي أو أدب الهامش هو كل أدب ينتج خارج المؤسسة سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو أكاديمية , و هو بذلك يقع بعيدا عن الرعاية و الاحتضان بل و يجري العمل على نبذه و استبعاده من دائرة الضوء , و قد تسلط عليه الرقابة و المنع إذا ما بدا عليه أنه يتجاوز الخطوط الحمراء المنبه عليها

و لعل الميزة الأساسية لهذا النوع من الإنتاج الأدبي هي كونه يخترق المؤلف في التفكير و التعبير , و ينتهك الطابوهات الأخلاقية و الاجتماعية و يتجاوز الحدود مع المقدس و المحظور و يخترق الردهات المحرمة للمسكوت عنه

تمثلات أدب الهامش:

الأدب الشعبي: هو الأدب الشائع لدى الطبقات الشعبية , يتخذ من اللهجة المحلية وسيلة للكتابة و في بعض الأحيان لغة عامية شبيهة بالفصحى او قريبة منها , و هذا الأدب باستخدام اللهجة المحلية او اللغة العامية يقترب أكثر من الطبقات الدنيا في المجتمع يطرح قضاياها المسكوتة عنها و الممنوعة من الطرح و يعالج مشاكل هذه الفئة الدنيا و لهذا يعد هذا الأدب من أكثر الآداب التي تعاني التهميش , يعرفه احد النقاد الجزائريين " عبد المالك مرتاض" فيقول عنه: أي الأدب الشعبي كالآلة المسجلة التي لا تخطئ و لا تكذب , تخرج الصوت كما سمعته , أو كالآلة المصورة التي لا تنافق و لا تماري , إن هذا التراث لا يقل أهمية و جمالا عن التراث الأدبي الفصيح , فكلاهما صور حياتنا الاجتماعية و عبر عن عواطفنا الملتهجة و رسم آمالنا الخافقة و سجل آلامنا المبرحة , فهو يرسم صورا صادقة و واضحة عن الحياة, و يتطرق إلى المساس بقضايا العامة و يعالجها بطريقة حساسة , لأنه يحس بهم , ان هذا التراث لا يقل أهمية عن التراث الفصيح بل هو يماثله في معالجة القضايا الاجتماعية

الكتابة الجدارية: الكتابة على الجدران قديمة قدم الإنسان, وجد فيها فضاء للتعبير على حاجاته و رغباته التي غالبا ما تطمح لتغير وضع ما يهدد وجوده و حرته و غالبا ما تكون السلطة القائمة اتخذت الكتابة الجدارية قديما أساليب كالفحم و الأحجار و غيرها, يبوح بواسطتها {لأنها الوسيلة الوحيدة المتاحة} بأوضاعه و شكوا أحواله و التقاليد القاسية التي تتحطم فيه, و أصبحت هذه الوسيلة مع مضي الزمن وسيلة المهمشين و المقموعين و ان لم يحفظها الزمن لتدوينها غالبا في أماكن بعيدة بمواد زائلة قابلة للمحو مع مرور الزمن , لهذا سميت بالفن الزائل , و كتابات الحضارات القديمة الزائلة دليل على هذا الفن

الأدب الساخر: السخرية استراتيجية فنية اتخذها أدب الهامش للوقوف عن المسكوت عنه و المواردي قصد تعريته و فضحه في صور مضحكة ساخرة او مبكية في كثير من الأحيان , و في الأدب القديم يعد الجاحظ أول من اتخذ هذه الاستراتيجية الفنية في كتاب "البخلاء - رسالة التبريع و التدوير" حيث عمد في هذين المؤلفين إلى الكشف عن بعض جوانب الاختلال في المجتمع الذي عاشه {العصر العباسي} من خلال تسليط الضوء على فئة المهمشين و المقهورين كل ذلك عن طريق السرد في قالب سخرى لاذع بالإضافة إلى أبي حيان التوحيدي و غيره في الأدب القديم

أدب الطفل: اعتقد الدارسون و الكتاب على حد سواء لعقود طويلة أن الكتابة للطفل تعني التدني بمستوى اللغة و التعبير و التفكير, جاهلين بذلك أن الكتابة للطفل هي مغامرة أكثر تعقيدا و أكثر صعوبة من الكتابة للراشد , لان سعة خيال الطفل في مراحله الأولى قد تتجاوز خيال الراشد , و لهذا الاعتبار ظل أدب الطفل أو الكتابة للطفل في الدرجة الثانية و لم يلقي أهمية كبيرة في البداية , فاقصر في أوروبا على بعض القصص التي تروىها المربيات لأبناء النبلاء بغرض أخلاقي أو لتحقيق وظيفة تربية

أما في الأدب العربي فقد بدأ الاهتمام بأدب الطفل في بدايات عام 1875 ببعض الكتابات التربوية الهادفة و الرسائل الأخلاقية الموجهة للطفل فكانت مقرونة بالجانب التعليمي من أجل غرس القيم و المبادئ في نفوس الأطفال . أما البداية الفعلية لأدب الطفل فقد كانت حين اطلق مصطلح أدب الطفل في الأدب العربي عام 1979 , لهذا ظل أدب الطفل و مازال إلى حد بعيد على هامش الأدب لا يعرف للمركز سبيلا

الأدب النسوي: الإبداعات النسائية قليلة مقارنة بما ينتجه المبدع الرجل و قد بدأ ظهور الكتابات النسوية منذ ستينات القرن العشرين تحديدا , حيث بدأ الحديث بشكل واضح في الغرب أولا , ثم في المشرق بعد ذلك عن نظرية مغايرة في قضاء الكتابة , هي الكتابة النسوية التي تتمرد على كتابة الذكور أو كتابة المجتمع التي تنتج في سياق وعي الذكورة و نفسية الأبوة و سلطة الرجل

هذا التصنيف راجع أساسا لأعراف المجتمع و تقاليده و ضغوطاته و التي هي أساسا من وضع الرجل , الذي أبقى على صوت المرأة مكبوتا مهمشا مغيبا, و إن حدث و ظهر هذا الصوت فإنه يقابل بالرفض و النكران يقول احد الباحثين "لقد ظلت - أي المرأة - خاضعة لسلطة الرجل قلبا و قالبا", و لم تظهر الكتابات النسوية بالشكل العلني في الغرب إلا مع الثورة الثقافية السياسية الأوروبية سنة 1848 , أما عند العرب فقد تأخرت مقارنة بمثيلاتها في الغرب

و قد وصف الأدب النسوي بالأدب الشبيه و الأدب المهمش, فحاولت المرأة المبدعة أن تؤسس لنفسها أرضية تمشي عليها و تجاهه الرجل بها فقامت من ناحية المضامين و الرؤى بفتح جبهة صراع مع الرجل و ما يمثله من سلطات اجتماعية و اقتصادية و ثقافية و غيرها هذا الصراع جسد عدة مفاهيم جديدة أخذت الكتابة النسوية تنظر إليها منها حق المرأة في التعليم و الانتخابات و العمل و البحث عن حررتها و إنسانيتها و استقلاليتها و محاربة تكوينها الجسدي إن قصد به التأثيم

لهذه الأسباب و غيرها ظل الأدب النسوي لفترة طويلة أدبا مهمشا و مظاهر تهيمشه كثيرة , لكن في الآونة الأخيرة بدأ هذا الأدب بالظهور و الانتشار خاصة بعد أن تحول الرجل المبدع إلى الكتابة عن قضايا المرأة و تولى الدفاع عنها فيما يسمى بخطاب ما بعد النسوية

حداية المركز و الهامش في الأدب العربي

يقول ابن رشيد في كتابة "العمدة" في حديثه عن الشعر و النثر { كل منظوم أحسن من كل منثور من حسنة في معترف العادة , إلا ترى أن الدر إذا كان منثورا لم يؤمن عليه و لم ينتفع به فإذا نظم كان اصون له من الابتذال و اظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال, كذلك اللفظ إذا كان منثورا تبدد في الأسماع و تدحرج عن الطباع و لم تستقر منه إلا المفردة من اللفظ إن كانت اجمله , و الواحدة من الألف و عسى إلا تكون افضله فان كانت هي اليتيمة المعروفة و الفريدة الموصوفة فكم من سقط الشعر من أمثالها و نظرائها لا يعبا به و لا ينظر إليه فإذا أخذه سلك الوزن و قعد القافية تألفت أشتاته و ازدوجت فرائده و بناته و اتخذها اللابس جمالا و المدخر مالا فصار قرطة الأذان و أمانى النفوس و أكاليل الرؤوس يقلب بالألسن و يخبئ بالقلوب مصونا باللب }

من خلال هذا القول تتجلى مركزية الشعر وتفضيله عن النثر حيث شبه اللفظ بالدرر فرغم قيمة الدرر الثمينة إن ترك منثورا لا يبرز جماله و قيمته المادية فإذا انتظم في حلية فان قيمته تبرز للأعيان و يكثر الطلب عليه

و موضع استخدام الكلمة يختلف من النثر إلى الشعر ففي النثر قد يسقط الكلمة الجميلة من أذان المتلقي في حين أن موسيقى الشعر تسهل التقاطه فيستقر في القلب دون أن تذهب كلماته أو تغفل حلقاتها

فالشعر هو الكلام الموزون المقفى و النثر هو الكلام المطلق الذي لا يتقيد بذلك و هذا فرق لفظي, أما الفرق المعنوي فيكمن في اعتماد الشعر على الخيال و العاطفة و النثر على العقل و المنطق فالنثر يرتبط بالكتابة و العقل و الشعر يرتبط بالشفوية و العاطفة

و مركزية الشعر القديم مستمدة من الثقافة الشفوية فيذكر ابن رشيق { ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون , فلم يحفظ من المنثور عشرة, و لا ضاع من الموزون عشرة..... } فالحفظ و التلقي هو الذي نقل الشعر من جيل إلى آخر قبل الإسلام و بعده حتى تأسست الكتابة العربية و دوت الأشعار نقلا عن الرواة الشفويين و انتقل الشعر من مرحلة الجن الشفوية إلى مرحلة النصوص الكتابية بوصفه تاريخا للتفاعل بين الشفوية و الكتابية

مركزية الشعر الفصيح و هامشية الشعر العامي

الشعر الفصيح هو المركز و الشعر العامي هو الهامش هذه قاعدة في كامل الأقطار العربية و هي نتيجة حتمية لاستعمال اللغة فاللغة العربية تستعمل مستويين أعلى هو الفصيح و أدنى هو اللهجات المحكية العامية فالفصحى هي اللغة المقدسة لدى العرب انتبه إلى خصوصياتها فصحاء القوم منذ شغلهم سحرها و بيانها ثم شغل بها البلاغيون فاستوقفهم أسرار بلاغتها و تميزها ثم كانت لغة الشعر الذي رآها العرب ديوانا لهم

أما العامية فتتداولها الطبقات الدنيا و قد يشاركها أفراد من الطبقات الوسطى . فإذا كان عمل اللغويون أمثال بن منظور في لسان العرب هو جمع اللغة فان عبد القاهر الجرجاني يميز من الألفاظ و يرى أن اللفظ العامي سخي و سخفه بإزالته عن موضع اللغة و إخراجها عما فرضته من الحكم و الصفة . هذا الحكم يعني التهميش و إزالة العامي من دائرة المركز و إبعاده من الساحة الأدبية يقول ابن سنان الخفاجي { يقبح في التأليف كثرة الكلام الوحشي أو العامي }

و رفض العلماء استخدام العامية راجع إلى عدة اعتبارات منها:
اعتبارات دينية لان المتعلمون يعجزون عن قراءة القرآن الكريم و كتب الحديث
اعتبارات قومية العامية تفرق من الشعوب العربية و تقطع روابط الفكر و ما كان من شأنه توحيد الاتجاه و تدعيم الصفات

اعتبارات تربوية من يتعلم الفصحى يكون اقدر على تعلم العامية و على توصيل المعنى و إفهام المتلقي

اعتبارات لغوية العامية أضيق لفظا و فكرا من الفصحى و العربية الفصحى أو الفصحى استطاعت أن تشمل كل معارف و علوم و آثار الأمم الأخرى التي دخلت تحت حوزة الأمة الإسلامية

فالعربية ليست لغة العرب وحدهم بل لغة الكل و هذه هي الحقيقة التي يجب أن تظهر للوجود لهذا نقول أن مركزية الشعر الفصيح تستمد أساسا من مركزية اللغة الفصحى المقدسة

الجانب التطبيقي:

روايات محمد شكري مثال: رواية الخبز الحافي و رواية زمن الأخطاء

روايات عزالدين جلاوحي مثال: الرماد الذي يغسل الماء

رواية ياسمينه صالح: وطن من زجاج